ISSN: (3006-8614)
E-ISSN: (3006-8622)
Journal of Alma’rifa for Humanities
available online at: https://uomosul.edu.iq/womeneducation/almarifa/

The Art of Intertwining in The Verses of Al-Hajjaj in Surah Al-An'am – A Rhetorical Study

Dr.
*Ahmeed Ameer Sultan

Department of Quran Sciences,
College of Education for Girls,
University of Mosul,
Nineveh , Iraq

*Corresponding author e-mail:
dr.ahmed.amer@uomosul.edu.iq

***Keywords*:**

Intertwining.
Al-Hajjaj.
Surah Al-An’am.
rhetorical study.

ARTICLE INFO

Article history:
Received 20. Feb.2023
Accepted 4. Apr.2023
Available online 3.Jan.2024

Email:
almarefaa.ecg@uomosul.edu.iq

ABSTRACT

The Art of Intertwining is one of the important arts of rhetoric from the Science of Rhetoric’, and it has been called by many names, including synthetic or contrastive deletion, as it is when two opposite speeches meet. This research was conducted to reveal the Art of Intertwining in the verses of Al-Hajjaj in Surat Al-An’am. A number of examples were on the topic of Al-Hajjaj were considered because Al- Hajjaj is based on opposites, and attention. The methodology of the research was based on the rhetorical analysis of the verses of the pilgrims to reveal the art of engagement and its rhetoric, and then the other arts of rhetoric surrounding it.

© 2024AJHPS, College of Education for Girls, University of Mosul.

Journal of Alma’rifa for Humanities
Journal of Alma’rifa for Humanities

فنُّ الاحتباك في آيات الحِجاج في سورة الأنعام– دراسة بلاغيّة

أ.م.د. أحمد عامر الدّليمي

قسم علوم القرآن والتربية الاسلامية/ كلية التربية للبنات/ جامعة الموصل

الخلاصة:

يعد فن الاحتباك أحد فنون البلاغة المهمّة من علم البديع، وأطلق عليه مسميات عديدة منها الحذف التركيبي أو التقابلي، فهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كلّ واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه، وقد أجرينا هذا البحث في الكشف عن فن الاحتباك في آيات الحجاج في سورة الأنعام، وقد توافر لنا عدد من الأمثلة في موضوع الحجاج، لأنّ الحجاج يتأسس على الأضداد، والالتفات، وكذلك ما وجدناه من أنّ الاحتباك يتأسس عليهما كذلك.

الكلمات المفتاحية: (الاحتباك) (الحجاج) (سورة الانعام) (دراسة بلاغية)

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.. فالاحتباك ملمحٌ بلاغيٌّ، سمّاه الزركشيّ الحذف المقابليّ، وعرّفه بقوله: "هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كلّ واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه[1]. وهو أن يأتي المتكلّم بأمرين، كلّ أمر فيه عنصران، المتكلّم يريد أن يربّي الفائدة بإيجاز دقيق، فيجيء من العنصر الأوّل عنصر، ويحذف مقابله من العنصر الثّاني، ويجيء من العنصر الثّاني عنصر، ويحذف مقابله في الأوّل[2]. وقد وردت حالات الاحتباك في القرآن الكريم في مواضع عديدة من آياته وسوره، لكنّنا رأينا من خلال دراستنا وبحثنا حول الموضوع أنّ سورة الأنعام قد تميّزت بورود هذا الفن مع آيات الحجاج فيها، وذلك لما في أسلوب الحجاج من الحاجة إلى الايجاز والحذف لبعض عناصر الكلام، وتقديم الخلاصات المؤثرة في الطرف الآخر، فناسب أن يتكاثر هذا الفنّ في آيات الحجاج، وسورة الانعام من السّور التي اختصّت بالمُحاججة بقضايا الإيمان بالرّسالة السّماويّة، ونقض أدلّة المُنكرين، وقد وقع البحث في توطئة وخمسة مباحث، أوردنا في التوطئة المعنى اللغوي والاصطلاحي للاحتباك، أما المبحث الأول فكان بعنوان: (القيم الأخلاقية في الدّعوة والحجاج)، وأمّا المبحث الثّاني فهو بعنوان: (المُحاججة الانتهاء عن الآثام الظاهرة والباطنة)، وأمّا المبحث الثّالث فكان بعنوان: (المُحاججة في بيان قدرة الله في الإنشاء والاستخلاف)، ثم يأتي المبحث الرابع بعنوان: (المُحاججة في التّحدّي والتّعجيز)، وأخيراً فإنّ المبحث الخامس بعنوان: (المُحاججة في رفض الأخطاء والجرائم المجتمعيّة)، وقد كان للفنون البلاغية الأخرى الأهمية في بيان بلاغة آيات الحجاج من الشّواهد على فنّ الاحتباك. ثم خُتم البحث بجملة من الاستنتاجات والتّوصيات.

- **الاحتباك لغة واصطلاحاً:**

الاحتباك لغة: الحبك: الشد والإحكام، وإجادة العمل، والنسج وتحسين أثر الصنعة في الثوب، يقال: حبكه حبكاً؛ أجاد نسجه وحسن أثر الصنعة فيه[3]. حَبَكْتُهُ بالسيف حَبْكاً؛ وهو ضَربٌ في اللَّحْم دون العَظْم، ويقال: هو مَحْبُوكُ العَجز والمَتْن إذا كان فيه استِواء مع إرتفاع. والحِباكُ؛ رباط الحَضيرة بقَصَبات تُعَرَّضُ ثمَّ تُشَدُّ كما تُحبَكُ عُروشُ الكَرْم بالحِبال. واحَتَبَكْتُ إزاري: شَدَدْتُه. والحَبيكة: كلُّ طريقة في الشَّعْر وكُلُّ طريقةٍ في الرَّمْل[4]. وللشعر الجعد حبك[5]. والحُبُك: كذلك

---

(1) البرهان في علوم القرآن ،الزّركشي: 129/3.

(2) المنتخب من تفسير القرآن ،الشّعراويّ: 100/3-101.

(3) تاج العروس ، الزّبيديّ: مادة (ح ب ك).

(4) العين ،الفراهيديّ: مادة (ح ب ك).

(5) أساس البلاغة الزّمخشريّ: مادة (ح ب ك).

خِلْقةُ وجْهِ السَّماء. قال تعالى: {والسّماء ذات الحُبُك} وللرّيح في الماء والرّمل حبك وحبائك؛ أي طرائق، وما أحسن ما حبكتها الرياح[1].

الاحتباك اصطلاحاً: مصطلح الاحتباك مأخوذ من المعنى اللغويّ الذي هو الشدّ والإحكام وتحسين أثر الصّنعة. فمواضع الحذف في الكلام شُبّهت بالفُرجِ بين الخُيوط، فلمّا أدركها النّاقد البصير بصوغِهِ الماهر في نظمه وحَوكِهِ فوضع المحذوف مواضعه كان حابكاً له مانعاً من خلل يطرقه فسد بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه من الحُسن والرّونق[2]. ومن خلال الدراسات الحديثة فقد وقف الباحثون على جملة من أنواع الاحتباك، واختلفت تعريفاته الاصطلاحية تبعاً لنوعه؛ فالاحتباك الضدّيّ أن يحذف من الأوّل ما أثبت ضدّه في الثّاني، ومن الثّاني ما أثبت ضدّه في الأوّل. والاحتباك المتشابه: هو أن يحذف في الأوّل ما أثبت مثله في الثّاني، ومن الثّاني ما أثبت مثله في الأوّل[3]. وغيرها من أنواع الاحتباك الأخرى. ومن بلاغة محسّن الاحتباك ما فيه من الأثر النّفسيّ الكبير، متمثلاً في بعث الفكر، وتنشيط الخيال، وإثارة الانتباه، ليقع السّامع على مُراد الكلام، ويستنبط من القرائن والأحوال.

- **الحِجاج لغة واصطلاحاً:**

الحِجاج لغة: إحتج على خصمه بحجة شهباء، وحاج خصمه فحجه، وفلان خصمه محجوج، وكانت بينهما محاجّة وملاجّة. وسلك المحجّة، وعليكم بالمناهج النيّرة، والمحاج الواضحة[4]. ويأتي معناها على وجهين؛ الخصومة الحجة فوجه منهما الحجة الخصومة قوله تعالى في سورة البقرة: {قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم}؛ أي تخاصموننا، مثلها في آل عمران: {ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم}؛ أي خاصمتم وتخاصمون ونحوه الثاني الحجة يعني البالغة أي الوثيقة قوله تعالى في سورة الأنعام: {قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين}؛ أي لله الحجة الوثيقة؛ ومثلها قوله تعالى في سورة البقرة: {لئلا يكون للناس عليكم حجة}.

الحِجاج اصطلاحاً: عمليّة تقوم على الاستدلال العقلي، والتأثير العاطفي، وبلاغة الخطاب، لدفع المُتلقّي إلى تعديل موقفه أو رأيه أو سلوكه. فالحجاج إجراء يستهدف من خلاله شخص ما حمل مخاطبه على تبني موقف معين، عبر اللّجوء إلى حجج تستهدف إبراز هذا الموقف، أو صحة أسسه، فهو إذن عملية هدفها إقناع الآخر، والتأثير عليه[5].

---

(1) المصدر نفسه: مادة (ح ب ك).

(2) معترك الأقران في إعجاز القرآن ،السّيوطي: 1/242–243.

(3) بلاغة الحذف التركيبي، د. عدنان الأسعد: 191.

(4)أساس البلاغة: مادة (ح ج ج).

(5) دروس الحجاج الفلسفي، أبو الزهراء مجلة ، الشبكة التربوية الشاملة، 2008: 5.

ويعرفه دومينيك مانغينو **Dominique Maingueneau** بأنه: "آلية موجهة إلى جعل بعض النتائج مقبولة من قبل جمهور معين في ظرف معين"[1]. وثمّة تعريف آخر يُحيل على مفهوم الخطاب فـ "الخطاب الحجاجي هو خطاب موجه، وكل خطاب يهدف إلى الإقناع يكون له بالضرورة بعد حجاجي"[2].

المبحث الأوّل

القيم الأخلاقيّة في الدّعوة والحِجاج

الشاهد فيها قوله تعالى: { وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ 108 }

بعد أن بيّن سبحانه لرسوله في الآيات السابقة من سورة الأنعام أنّ الهداية بيده، يهدي من يشاء ويُضلّ من يشاء، أتبعها بنهي المؤمنين عن سبّ أولئك الذين هم في ضلال من المُشركين، هم وما يعبدون من دون الله؛ إذ لا جدوى من سبّ الآلهة، أو سبّ الذين كفروا؛ وهذا من وقائع المُحاججة ومُسلّماتها، لأنّ ذلك مدعاة لإصرار الكُفّار على التزام آلهتهم وشركهم، ثم يتجرّؤون على سبّ الله تعالى عدواً بغير علم، وهذه قد تكون من الافتراضات التي تُعرف بالقياس، فما دمتم تسبّونهم وتسبّون آلهتهم فإنّهم سوف يسبّونكم ويسبّون إلهكم. وما ذاك إلا من قبيل تزيين الأعمال السيّئة بأنّها مقتضى الواقع، فنظّم في هذه الآية قيمة أخلاقيّة، وهي جانبٌ من أسلوب التّعامل مع المشركين. ومعلوم أنّ القيم وهرميتها هي من المُسلّمات المُهمّة في أسلوب الحجاج.

وقوله: **{وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ }** عطف على قوله: { وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ } [الأنعام: 106] وهو أسلوب وصل حاصل عن عطف جملة إنشائيّة على جملة إنشائيّة أخرى بين الأمر والنّهي، يزيد معنى الإعراض المأمور به بيانًا، ويحقق ما قلناه أنْ ليس المقصود من الإعراض ترك الدعوة؛ بل المقصود الإغضاء عن سبابهم وبذيء أقوالهم، مع الدوام على متابعة الدّعوة بالقرآن، فإنّ النّهي عن سبِ أصنامهم يؤذن بالاسترسال على دعوتهم، وإبطال معتقداتهم، مع تجنّب المسلمين سبّ ما يدعونهم من دون الله. وتضمّنت هاتان المسألتان عدم التّناقض بين الأمر بعدم سبّ أصنامهم من جانب، والاستمرار في دعوتهم إلى عبادة الله وحده ونبذ تلك الآلهة؛ ليكتمل عنصر الإيجاب في هذا الطرح.

---

(1)Dominique Maingueneau : Pragmatique pour le Discours Littéraire, Bordas, Paris, 1990, p35.

(2) البنية الحجاجية في القرآن الكريم سورة النمل نموذجا، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص، 1997، 330.

والسّبّ: كلام يدل على تحقير أحد، لفعل أو اعتقاد، أو نسبته إلى نقيصة، والمخاطب بهذا النّهي هم المسلمون لا الرّسُول صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ الخُلُقَ العظيم له صلى الله عليه وسلم حائِلٌ بينَهُ وبينَ ذلك، ولأنَّهُ يدعوهُم بما ينزل عليه من القرآن، وإنَّما كان المُسلمون لشديد غيرتِهِم على الإسلام رُبَّما تجاوزوا الحَدَّ فَفَرَطَتْ منهُم فَرَطَاتٌ سبّوا فيها أصنَام المُشركِينَ[1]. فقال: {**وَلَا تَسُبُّواْ**} ولم يرد التّعبير القرآنيّ بـ (ولا تسبّ): فعدل عن خطابه إلى خطاب المؤمنين، مخاطباً الجمع، ولم يكن التركيب (ولا تَسُبَّ) للمفرد، كما جاء في سابقتها (وأعرض)[2].

وقوله: { **ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** } هم الأصنام؛ أي يدعونهم المشركون، فعبَّر بـ (الذين) لما لا يعقل معاملة من يعقل؛ إذ كانوا يُنزلونَ أصنامهم منزلة من يعقل في عبادتهم واعتقادهم فيهم؛ أنهم شفعاء لهم عند الله تعالى[3].

ووجه النَّهي عن سبِّ أصنامهم هو أنَّ السَّب لا تترتب عليه مصلحة دينية؛ فالمقصود من محاجتهم هو الاستدلال على إبطال الشِّرك وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله تعالى، فاقتضى المجادلة بالحُسنى، فقال تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم): {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[النحل: 125]، وقال لموسى وهارون –عليهما السلام– {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا}[طه: 44]، فصار السّبّ محض مفسدة، ولم يكن مشوبًا بمصلحة[4].

وقوله: {فيسبّوا الله عدواً}؛ أي فيكون ما تفعلون سبباً لسبّ الله تعالى سبحانه، وهذا من تقنيات الحجاج المهمة التي هي الوصل بين الظاهرة ومسبِّباتها، ونتائجها؛ فذيّل السّبب بنتيجته، والسّبب من الرّوابط الحجاجيّة المهمّة، بين الأفكار والحُجج، وبالتالي يتحقّق تماسك وانسجام بين أفكار النّص الحجاجيّ.

"(وعَدْوًا) بفتح العين وسكون الدّال وتخفيف الواو؛ وهو مصدرٌ بمعنى العُدوان والظُلم، وهو منصوب على المفعوليّة المطلقة لـ (يَسُبُّوا)؛ لأنّ العَدْوَ هنا صفة للسَّبّ، فصحّ أن يحلّ محلّه في المفعوليّة المُطلقة بيانًا لنوعه"[5].

وقوله: { **بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ** } حال من ضمير (فيسبوا)، أي عن جهالة، فلا يزعهم وازع عن سبّ من أمر محمدًا صلى الله عليه وسلم بما جاء به؛ فيصادف سبّهم سبّ الله تعالى بلا علم منهم. وهذا من قبيل إصدار حكم لبيان ما هم فيه من الجهالة، وهذا واحد من أساليب الحجاج المهمّة. فلو كانوا يعلمون

(1) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: 427/7.
(2) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الاندلسي: 611/4.
(3) ينظر: المصدر نفسه: 611/4.
(4) ينظر: ، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 61/7.
(5)التحرير والتنوير: 432/7.

عظيم شأن الله ما تجرّأوا على هذا الفعل. فذكر {بغير علم} احتراساً أنّهم لو علموا عظيم ما يفعلون أو يقولون من سبّ الله لامتنعوا عن ذلك.

ويجوز أن يكون {بغير علم} صفة لـ (عدوًا) كاشفة، لأنّ ذلك العدو لا يكون إلا عن غير علم بعظم الجرم الذي اقترفوه، أو عن علم بذلك لكن حالة إقدامهم عليه تشبه حالة عدم العلم بوخامة عاقبته[1]. ومعنى {بغير علم} على جهالة بما يجب لله تعالى أن يذكر به وهو بيان لمعنى الاعتداء[2].

وقوله: { **كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** } معناه كتزييننا لهؤلاء سوء عملهم زينا لكل أمة عملهم، وهذه تقنيّة أخرى من تقنيّات الحجاج؛ هي التمثيل والتّشبيه؛ فيقدّم أمثلة لتفسير الظّاهرة الاجتماعيّة السّائدة، فيعتمد مبدأ القياس؛ إذ يقيس ظاهرة على أخرى، فيكشف عن الخصائص المشتركة بينهما.

فإنّ اجتراءهم على هذه الجرائم وعدم النّظر في سوء عواقبها نشأ عن تزيينها في نفوسهم وحسبانهم أنها طرائق نفع لهم، فعلى مثل هذا التّزيّن زين الله أعمال الأمم الخالية مع الرّسل الذين بعثوا فيهم، فكانوا يشاكسونهم، ويجترئون على ربّهم، فلمّا شبّه بالمشار إليه تزيينًا علم السّامع أنّ ما وقعت إليه الإشارة هو من قبيل التّزيين. فيكون في قوله: { **كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** } تعريض بالوعيد بعذاب الأمم، وجاءت (ثم) للترتيب والتّعقيب في قوله: { **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** }، لأنّ ما تضمنته الجملة المعطوفة بـ (ثم) من الوعيد أعظم مما تضمنته المعطوف عليها، والمعنى: أعظم من ذلك أنّهم إلى الله مرجعهم فيحاسبهم. والعدول عن اسم الجلالة إلى لفظ ربهم في قوله: { **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ** } لقصد تهويل الوعيد وتعليل استحقاقه؛ فهم راجعون حتماً إلى خالقهم الذي كفروا نعمه وأشركوا به[3].

قال: (فينبؤهم) ولم يقل: (فيبين لهم)، بمعنى توقيفهم على سوء أعمالهم. وقد استُعمل هنا في لازم معناه، وهو التوبيخ والعقاب، لأنّ العقاب هو العاقبة المقصودة من إعلام المجرم بجرمه[4]. والفاء للتّفريع مؤذنة بسرعة العقاب، وأفاد التّفريع بالإنباء معنى الإحصاء، وعدم تفويت شيء من أعمالهم، فهو سبحانه أسرع الحاسبين، فيحاسبهم على أعمالهم كُلّها. وقوله: (فينبّؤهم) لما في هذا الإعلام من المُفاجَأة لهم؛ أنّه سبحانه قد أحصى عليهم كلّ صغيرة وكبيرة، كانت في عداد المنسيّات لديهم، لكنّه سبحانه أحصى كلّ شيءٍ علماً وعدداً. ونجد في هذه الآية أنّ مسار الحجاج قد انتقل من ذكر حالة خاصة هي تزيين أعمال الكافرين؛ إلى تعميمها على كلّ أمّة قد زيّن الله لهم أعمالهم. ويؤدّي التّشبيه دوره باعتباره رابط الحجاج فيقدّم الاستشهادات والأدلّة، وبذلك يحقق أسلوبُ الحجاج وظيفته في الاستدلال والبرهنة والاقناع.

---

(1) ينظر: المصدر نفسه: 432/7.

(2) ينظر: البحر المحيط: 612/4.

(3) ينظر: التحرير والتنوير: 433/7-434.

(4) ينظر: التحرير والتنوير: 434/7.

استنتاج (الاحتباك) وتقديره في الآية:

إنّ سبّ الكُفّار أو سبّ معبوداتهم، يؤدّي بالضّرورة إلى سبّ المسلمين وسبّ دينهم فجاء النهي عن ذلك.. ويحتمل أن يراد بـ {الذين يدعون} الكفار أنفسهم دون الآلهة التي يعبدونها، وظاهر قوله: {فيسبوا الله}؛ أنَّهُم يقدمون على سَبِّ الله إذا سبت آلهتهم، يحملهم على ذلك انتصارهم لآلهتهم[1]. فيكون تقدير الاحتباك في الآية **[ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله، وتسبّوا آلهتهم، فيسبّوا الله عدواً بغير علم، ويسبّوكم]**. فحذف من الأوّل (لا تسبّوا آلهتهم) لأنّه ذُكر في مقابل: {فيسبّوا الله عدواً بغير علم}، وحذف من الثّاني (يسبّونكم) لدلالة الأوّل عليه {ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله}. وكان المشركون يسبون الرّسول، فأجري سبّ الرسول مجرى سبِّ الله تعالى كما قال: {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله}[الفتح: 10]، وكما قال: {إن الذين يؤذون الله ورسوله}[الأحزاب: 57]، أو كان يعتقد بعضهم أن شيطانًا يحمل الرّسول على ادعاء النّبوة والرّسالة، وكانوا بجهلهم يشتمون ذلك الشيطان بأنّه إله محمد[2].

المبحث الثاني

المُحاججة في الانتهاء عن الآثام الظاهرة والباطنة

الشاهد فيها قوله تعالى: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ}[الأنعام: 120].

تتضمّنُ الآيةُ الأمرَ بترْك الإثْم ظاهرًا وباطنًا، وتُؤكّدُ علَى تَرْكِ مَا قَبُحَ شرْعًا وعُرْفًا، واجْتناب ما حَرَّمَ اللهُ؛ والآية في عمومها تضمّنت الأمر بقضيّة يكون المُتلقّي فيها مسلّماً مقتنعاً بأحقّيتها وصوابها، فهي قضيّة دينيّة وأخلاقيّة مفادها الانتهاء عن ارتكاب الآثام ظاهرها وباطنها. وتضمنت الآية قاعدَةٍ عامّةٍ هي وجه من وجوه الإعجاز في التشريع القرآني، تمثّلت بجلْبُ المصَالح، ودرْءُ المفَاسِدِ، واللهُ لم يُحرّمْ على عبادِهِ إلّا ما كانَ ضارًّا بالأفراد، والمجتمعات، سواءٌ أكان ضررُهُ ظاهرًا أو خفيًّا، والظّاهرُ ما ظهَرَ قُبحُهً، فرآهُ النّاسُ، وظهرَ علَى الجوارح، والباطنُ ما لم يظهرْ قبحُهُ على الجوارح.. وختَمَ بيانَهُ بتهْدِيدِ الّذين يكسِبُون الآثام بأنواعها، بالجزاءِ الأليمِ يومَ القيامةِ، على ما اقترفتهُ أيديهم الآثمة المُفسدة.

وقد توسّع المفسّرون في دلالة قوله تعالى: {ظاهر الاثم وباطنه}.. فقولُهُ: {ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}، ما أعلنتُمْ منْهُ وما أسْرَرْتُمْ، وقيلَ: ما عمِلْتُم وما نَوَيْتُمْ[3]، و"إنّ الظّاهرَ ما كانَ عملًا

---

(1) ينظر: البحر المحيط: 611/4.

(2) ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) ينظر: الكشّاف: 2 / 57.

بالبَدَن ممَّا نَهَى اللهُ عنْهُ، والباطنَ ما عُقِدَ بالقلبِ مِنْ مُخالفةِ أمْرِ اللهِ فِيمَا أمَرَ ونَهَى"[1]، والظّاهرُ عُمُومًا ما يراهُ النّاسُ، ويطّلعُونَ عليه، والباطنُ مَا لَا يطّلعُ علَيْهِ النّاسُ، وسِياقُ الآيةِ أنّهُ عامٌّ في كُلّ إثم، وهذا ما يُؤدّيه أيضًا فنُّ الطّباق بين المُتضادّين: (ظَاهِرَ الْإِثْمِ) و (بَاطِنَهُ)، فدلالةُ الطّباق على الشُّمُول واضحةٌ عَمُومًا، والمَعْنى ذَرُواْ المَعَاصِيَ كُلَّها؛ سرَّها وعلانيَّتَها، وذرُواْ الإثمَ منْ جميعِ جهاتِهِ[2].

وشمل اللفظان (ظاهر) و (باطن) أنواع الاثم جميعها، صغيرها وكبيرها، سرّها وعلنها.. والشّمول يضمن عدم التّناقض في ترك الآثام؛ الذي هو من أهم تقنيّات الحجاج؛ إذ لا يُترك الظاهر ويُعفى عن الباطن، فكلّها آثامٌ مأمورون بتركها، و(الْ) التّعريفيّة في لفظ (الإِثْمِ):" تُفيدُ الاسْتِغْرَاق، لأنّهُ في المَعْنَى تَعْريفٌ للظّاهِرِ وللباطِنِ مِنهُ، والمَقصُودُ منْ هذين الوصْفين، تعمِيمُ أفرادِ الإثمِ لانحِصارِهَا في هَذَيْن الوصْفين، كما يُقَالُ: المشرقُ والمغربُ، والبرُّ والبحرُ، لقصْدِ استِغْرَاقِ الجِهَات، وظاهرُ الإثْمِ ما يراهُ النّاسُ، وباطنُهُ ما لا يطّلعُ عليهِ النّاسُ، ويقعُ في السّرّ، وقَدِ اسْتوْعَبَ هذَا الأمْرُ، ترْكُ جمِيع المَعَاصِي"[3]، والْأَلْيَقُ أَنْ يُحْملَ ظَاهر الْإِثْم وَباطنهُ على أَكْل المِيْتةِ، ومَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عليهِ[4]، لانْسِجامِهِ معَ سيّاق الآيَة، وما ورَدَ فيهَا، منْ تحْريم مَا لمْ يُذكَرِ اسْمُ الله عليْه.

والمُلاحَظُ في معنى النّصّ الشّريف، أنّ المسألة تنتظمُ في مرْحلتين: الاقْترافِ والكسْبِ، وأنّ الكسْبَ قدْ أتَى نَتيجَةً للاقْترَافِ، والتّناسُبُ المَعْنويُّ واضحٌ بين قوله: (يَكْسِبُونَ) و(يَقْتَرِفُونَ)، هذا فضْلًا عمّا يُوحيه سياقُ الآية، من ائْتلافِ الألفاظِ، وتنَاسُبِ المعَانِي، وانْسِجَامِهَا بيْن ظاهرِ الإثْم والكسْب، وباطنِ الاثمِ والاقْترافِ؛ بلْ إنّ الاقترافَ هُو تأْسِيسٌ خفيٌّ لكسْب الذُّنُوبِ الظّاهِرةِ.

وأظهر لفْظِ الإثْمِ في مقّامِ الإضمار؛ فلمْ يقُلْ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَهُ}؛ بلْ قالَ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ}، لزِيادةٍ في التّنْدِيدِ به، وهذا من أساليب الحجاج اللّغويّة، وفائدة ذلك من جانبين الأول: استقرار الجملة في ذهْنِ السَّامِعِ، وثانيها: استقلال الجملة بذاتها؛ فتسيرُ مضرباً الأمثال والحكم، فتكونُ موردًا لها، وتصيرُ استعارة تمثيليّة، لكلّ واقعة تُضربُ بها مثلًا، وحرفُ السّينِ دلالتُهُ واضحةٌ على تحقُّق الوقُوع والاستمرَارِ.

والكسْبُ والاقترافُ مُتناسبان، مع ظاهر الاثم وباطنه، وبينهما لفٌّ ونشرٌ، والنّشر على ترتيب اللّف، ونُوجزُ هُنا ما يُستفادُ من فنّ اللّف والنّشر، من المعاني البلاغيّة بما يأتي:

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7 / 73.

(2) ينظر: زاد المسير في علم التّفسير، ابن الجوزيّ: 3 / 112.

(3) التّحرير والتّنوير : 8 / 37.

(4) ينظر: البحر المحيط : 4 / 632.

أوّلًا: إنّ (الكسب والاقتراف)، أحدُهُما وليدُ الآخر؛ إذ إنّ كسب الاثم، هُو نتيجةٌ لما كان يقترفُ الآثمُون من الآثام الخفيّة الّتي استقرّت في نفُوسهم، وصغت إليها أفئدتُهُم.

ثانيًا: الامتزاجُ بيْنَ ظاهِرِ الإثْمِ وباطنِهِ، بيّنٌ منْ خلالِ النّتائجِ الّتي أقرّتْهَا الآيةُ، وحصلنا عليْهَا في أسْلُوبِ (النَّشْر)، بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ}، ثُمّ إنّ اقْترافَ الآثامِ الباطنةَ مُستمرّةٌ، ولا تنْقطعُ معَ اكْتِسابِ الآثامِ الظّاهرة.. فمصْدرُها مُدرٌّ على صاحبِهَا نتيجةَ ذلكَ الخفَاء، ومعَ هذا الامْتزاج بيْنَ ظاهِرِ الاثمِ وباطنِهِ، تُصْبحُ الآثامُ كمنْظُومة مُتعاهدٍ عليْها، تدُورُ بالإنْسَان فِي سِياقِ حياتِهِ ظاهرًا وباطنًا، بعضُها يُولّدُ بعْضًا، وهذا منْ جَمِيل تداعيّاتِ اللّفِّ والنّشْرِ في النّصّ الكريم.

المبحث الثالث

الحجاج في بيان قدرة الله في الإنشاء والاستخلاف

الشاهد فيها قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133)}.

لمّا ذكر تعالى في آيات سابقة جانب الطّاعة والمعصية، وبيّن في الثّواب والعقاب، ذكر أنّه سبحانه هو الغنيّ من الجهات جميعها، لا تنفعه الطّاعة، ولا تضرّه المعصية، ومع كونه غنيّا هو ذو الرّحمة؛ أي التّفضّل التّامّ، ذو الرّحمة بكلّ خلقه، ومن رحمته تأخير الانتقام من العُصاة، ويترحّم عليهم بالتّكليف ليعرّضهم للمنافع الدّائمة[1]، وأمّا قوله: **{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ}**، فإنّه يقول: إن يشأ "(يُذْهِبْكُمْ)، فيُهلك خلقه هؤلاء الّذين خلقهم من ولد آدم، **{وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء}**، فيأْتِ بخلْقٍ غيركم، يخلُفونكم في الأرض، من بعد فنائكم وهلاككم كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانواْ قبلَكم"[2]. وقيل: هذا الوعيد لأهل مكّة، {وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ}؛ أي: ابتدأكم {مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}؛ يعني: آباءهم الماضين[3].

وقوله تعالى: **{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}**، الواو حرف عطف ووصل، عَطَفَ جملة: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} على جملة: **{وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}** [الأنعام: 132].. لبيان المُتلازمة بين علمه ورحمته سُبحانه، وبحسب تلك المُتلازمة النّاشئة عن صفتين من صفات الله تعالى، فقد تضمّنت الجملتان الوعدَ والوعيدَ.. وما ذاك إلّا لصدور رحمته سبحانه، بمُقتضى علمه سبحانه، وكلا الصّفتين مُطلقٌ.

---

(1) ينظر: البحر المحيط: 4 / 651.

(2) ينظر: جامع البيان ، الطّبريّ: 12 / 125.

(3) ينظر: زاد المسير: 2 / 79.

و{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}، مبتدأٌ، و (أَلْ) التعريف لقصر المُسند على المُسند إليه، وأمّا كونُ المعنى؛ هُو المعْرُوفُ بالغنى، كائنًا منْ كان عنْ كلّ من سواه، فلا يُناسبُ المقام، لأنّه بناء على كون اللّام للعهد، كما هو الظّاهر، فيفوت القصر المستفاد، من كون اللّام للجنس(1). فالقصر قيّد الاحتمالات الحجاجيّة لدى المُتلقّين، فالله تعالى وحده الغنيُّ غنىً لا يحتاج إلى أحد قطعاً، ويحتاجه كُلّ أحدٍ.

وفي الجملة كنايتان ناتجتان عن تعدُّد صفاتِهِ سُبحانه؛ فالأُولى: كناية عن غناه تعالى عن إيمان المشركين وموالاتهم، كما في قوله: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ}[الزّمر: من الآية 7]، والثّانية: كناية عن رحمته؛ إذ أمهل المُشركين، ولم يعجِّل لهم العذاب، كما قال: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ} [الكهف: من الآية 58] (2)، فهُو يُؤخّرهم ليوم القيامة، فمن تاب وأناب غُفر له ذنبه.

وقوله: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} إظهارٌ، في مقام الإضمار، ومقتضاه أن يقال: وهو الغنيّ ذو الرّحمة، فخُولف مُقتضى الظّاهر، لما في اسم (الرّبّ) من تناسب، مع مغفرته ورحمة سبحانه، وما في اسم الرّب من دلالة على العناية بصلاح المربوب، ولتكون الجُملة مُستقلّة بنفسها، فتسير مسرى الأمثال والحكم، وللتّنويه بشأن النّبيّ (صلى الله عليه وسلم).

ثمّ إنّ كلمة (الرَّبّ) في الجملة أنشأت طباق سلْبٍ، مع الجملة الّتي عُطفت عليها في قوله: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ}؛ فانْدرجَ العلمُ المُطلقُ مع الغنى المُطلق، والرّحمة المُطلقة في قوله: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}، في تعداد عظيم صفات الله، كمُتلازمة لفضله سُبحانه على المُخاطبين عامّتهم.

ومع كونه غنيًّا عنهُم، فهُو ذُو رحمة بهم؛ إذ لا يكُون غناهُ عنهم، مانعًا من رحمته لهُم، فجاءت الصِّفة الثّانية {ذُو الرَّحْمَةِ}، احترَاسًا أن يفهم غناه عنهم، كمانع لرحمته سُبحانه، فما أحسن هذا الكلام الرّباني وأبلغه! وما أقوى الاقتران بين الغنيّ والرّحمن في هذا المقام! فإنّ الرّحمة لهم مع الغنى عنهم، هي غاية التّفضُّل والتّطوُّل(3).

و(الغنيّ): هُنا المُطلقُ في غناه، فلا يحتاجُ إلى غيره بحال، "وحصر الخبر في المبتدأ بقوله: (الغنيّ)، أي وحده الغنيُّ المُطلقُ عن كلّ عابد وعبادته"(4)، فغناه يختلف عن غنى العباد؛ وهو مُحيط بكلّ الموجودات، ممّا يُنسب إلى الحقيقة مُشاهَدَها وغائبَهَا؛ إذْ يفتقر إلى غِناه كُلّ غنيّ سواه، وغناه مُتفرّدٌ واحدٌ، لا تكرار له قطعًا، فتحتاجُ كلّ الموجودات إلى غناه قطعًا، فالمعنى هنا

(1) ينظر: حاشية القونويّ على البيضاويّ القونويّ: 8 / 268 - 269.

(2) ينظر: التّحرير والتّنوير : 8 / 85.

(3) ينظر: فتح القدير، الشّوكاني: 2 / 187.

(4) ينظر: نظم الدّرر، البقاعيّ: 2 / 719.

كناية عن عموم ملك الله تعالى، فهو غنىً مُطلق، مقصورٌ على لفظ (ربّك)؛ والقصرُ هُنا ادّعائيّ، باعتبار أنّ غنى غير الله تعالى، لمّا كان غنىً ناقصًا، نزل منزلة العدم، أي ربّك الغنيّ لا غيره، وغناه تعالى حقيقيٌّ، وذِكْرُ وصف الغنيّ هُنا، تمهيدٌ للحُكم الوارد عقبهُ، وهُو: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ}(1).

وفي قوله: (ذُو الرَّحْمَةِ) عدل عن أنْ يُوصف بـ (الرّحيم)، وذلك على خلاف الغنيّ؛ إذ لم يوصف بـ (ذي الغنى): ومعناها صاحبُ، وهي تُشعرُ بقوّة أو وفرة ما تضاف إليه، والمقصُودُ من الوصف بذي الرّحمة، تمهيد لمعنى الإمهال الّذي في قوله: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ}؛ أي إنّه لرحمته أمهلهم إعذارًا لهم(2).

واقتران الوصفين الغنيّ وذو الرّحمة لأمرين:

أوّلهما: ليشير إلى أنّ ذلك الإرسال المذكور، لم يكنْ إلّا لمحض رحمته بعباده، لأنّه سبحانه الغنيّ عنهم غنًى مطلقًا.

وثانيهما: أن يكون تخلّصًا إلى خطاب العصاة من أمّة محمّد (صلى الله عليه وسلم)، بقوله: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ)، لأجل ذلك الاقتران، يعني أنّه تعالى مع كونه ذا الرّحمة، بإرسال الرّسل، كذلك هو غنيٌّ عن العالمين، إن يشأ يهلك العباد ويذهب بهم، ويأت بغيرهم، ممّا عبّر عنه بقوله:{وَيَأْتِ بِآخَرِينَ}،ولذلك كان التّعقيب بقوله: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ}(3).

وذو الرّحمة أبلغُ في هذا الباب من الرّحيم؛ لأنّها تلازمت بهذه الصّيغة مع الغنيّ، فصارت رحمته وصفًا ملازمًا لغناه؛ أدّى ذلك إلى أن يتفعّل لدى المُتلقّين مفهومٌ فريدٌ وحيدٌ للغنى، فتأتي هذه الصّفة (ذُو الرَّحْمَةِ)، وما فيها من سعة رحمته لخلائقه جميعًا، ثمّ ما فيها من معاني الإمهال للخلق، مهما بلغُواْ في العتُوّ والتّكذيب؛ فإن تابُواْ قُبلت منهم توبتُهم، وإلّا فإنّ حسابهم آتٍ يوم القيامة، ومنه قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا}[الكهف: 58]، وقوله: {كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} [الأنعام: من الآية 12].

ومع كونه غنيًّا، فإنّ رحمته عامّة كاملة، ولا سبيل إلى إيصال النّاس درجات السّعداء الأبرار، إلّا بترتيب التّرغيب في الطّاعات، والتّرهيب من المحظورات، فقال: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ }، ومن رحمته على الخلق، ترتيبُ الثّواب والعقاب على الطّاعة والمعصية(4)، فجاءت شاملة لأصحاب الدّرجات كلّهم.

---

(1) ينظر: التّحرير والتّنوير: 8 / 85.

(2) ينظر: المصدر نفسه.

(3) ينظر: فتوح الغيب، الطّيبيّ: 6 / 252.

(4) ينظر: مفاتيح الغيب، الرّازي: 13 / 163.

فالْغَنِيُّ صفةُ ذات لله تعالى، لأنّه (تبارك وتعالى)، لا يفتقر إلى شيء من الجهات، ثمّ هذه الصّفة بقوله: (ذُو الرَّحْمَةِ)، فأردف الاستغناء بالتّفضّل، وهذا أجملُ تناسق، ثمّ عقَّبَ بمسار حجاجيّ بقوله: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء}، المُضمّنة للوعيد، المُحذّرة من بطش الله سبحانه، في التّعجيل بذلك(1). فقدّم هنا فرضيّة تُحدّد بالقياس على قدرته سبحانه في الإذهاب والخلق. فيكون قد قدّم حقيقة دينيّة فجعلها نقطة انطلاق مسار الحجاج ليُثبت حقيقة علميّة، وهذه الحقيقة هي سُنّة كونيّة تندرج في قدرة الله تعالى.

وبعد أن نشر بقوله: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ}، أردف بقوله: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}؛ أي (بالكلّ) إنسهم وجنّهم، مؤمنهم وكافرهم، فالكُلّية أصبحت مدار الآيات الكريمة، حال أن كان الحديث عن كُلّيّة الغنى والرّحمة المطلقتين، كصفتين متلازمتين في مقام الآية الكريمة.

والإذهابُ مجازٌ في الإعدام والإفناء، والاستخلافُ: جعلُ الخلف عن الشّيء، والخلفُ: العوضُ عن شيء فائت، فالسّين والتّاء فيه للتّأكيد، و(ما) موصولةٌ عامّة، على طريقة (الكُلّ) الّتي بدأت بقوله تعالى: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ)، ثمّ أسَّسَت للكلّية مع قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}، فكان غناهُ ورحمتُهُ للكلّ كذلك. وتأتي الكُلّية أيضًا انسجامًا مع السّياق، في استخْلاف منْ يسْتحقّ أن يُستخلف من الأقوام الّذين يسعَوْنَ مُنسجمين مع ما وضع اللهُ تعالى، في هذا الكون وهذه الحياة، من سُنن وقوانين، تستدعي من البشر تفسيرها، والعيش بمقتضى ذلك التّفسير، وقد قدّمت الرّسالات السّماوية للبشر تفسيرات الحياة، ودَعَتْهُ إلى استخلاف الأرض، بمُقتضى تلك التّفسيرات وضوابطها وقواعدها، فمنْ خرج عن تلك القواعد والضّوابط من تلك الأقوام، أوشكت أن تستبدل بأقوام آخرين، يُجيدون الفهم بمُقتضاها، فلا يكُونُون كسابقيهم، قال تعالى: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم} [محمّد: من الآية 38]، ولتكون هذه المسألة واحدة من مقاصد القطعة القرآنيّة، أي: ما يشاءُ من مُؤمنين أو كافرين، على ما تقتضيه حكمتُه، وهذا تعريضٌ بالاستئصال، لأنّ ظاهر الضّمير يُفيد العمُوم.

أمّا قوله {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ}، فالأقربُ أنّ المراد به الإهلاكُ، ويحتملُ الإماتة أيضًا، ويحتملُ أن لا يبلّغهم مبلغ التّكليف، وأمّا قوله: {وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم}، يعني من بعد إذهابكم، لأنّ الاستخلاف لا يكونُ إلّا على طريق البدل من فائت، وأمّا قوله: (مَا يَشَاءُ)؛ فالمُراد منه خلقٌ ثالثٌ ورابعٌ، وهذا مُنسجمٌ مع الأفعال المُضارعة (يَشَأْ) و(يُذْهِبْ) و(يَسْتَخْلِفْ) الّتي تدلُّ على التّجدُّد والاستمرار، واختلفُوْا فقال بعضُهم خلقًا آخر، من أمثال الجنّ والإنس، يكونون أطوع؛ بل المُراد أنّه قادرٌ على أن يخلق خلقًا ثالثًا، مُخالفًا للجنّ والأنس، وهذا الوجهُ أقربُ(2).

(1) ينظر: المحرّر الوجيز، ابن عطية: 2 / 347.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب: 13 / 165.

استنتاج (الاحتباك) وتقديره في الآية:

قوله: (كَمَا أَنْشَأَكُمْ)، في موضع مصدر، على غير الصّدر، لقوله: ويستخلفُ لأنّ معناه ويُنشئُ، والمعنى إنْ يشأ الإذْهاب والاستخْلاف، يذْهبْكم ويستخلفْ، فكلٌّ من الإذهاب والاستخلاف، معْذُوقٌ بمشيئته، و(مِنْ) لابتداء الغاية[1].

والمعنى العامّ للآية، يُنبئ أنّ فيها احتباكًا، فيكون المعنى بحسبه: **[إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ، ويُنشئ آخرين، ويستخلفهم من بعدكم مَّا يَشَاء كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ واستخلفكم من بعدهم]**.

وقوله: {وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء}؛ الواو: حرف عطف للجمع، أي يكون الإذهابُ والاستخلافُ في وقت واحد؛ فيكونان مُتداخلين زمانًا؛ وفيه إشارة إلى احتمال أنّ الحضارات هنا هي المقصودة بالإذهاب والاستخلاف، على سبيل المجاز العقليّ؛ أي يُذهب شأنكم، وتمكّنكُم وحضارتكم، ويستخلف أُناسًا آخرين، لا يفعلُون أفعالكُم، فيستحقُون الاستخلاف، وهذا هو قانون الحضارات، والاستخلاف في الأرض؛ فالأمّة الّتي تعي سير عجلة التّاريخ، وتستوعب مسار الحركة التّاريخيّة، سيكون لها اليد الطُّولى في الاستخلاف والتّمكين، وهكذا تنزل أممٌ لتحلّ محلّها أممٌ أخرى، على مسار حركة التّاريخ، ويكون ذلك في تزامن، وهذا ما يدلُّ عليه حرف الواو، من الجمع بين الإذهاب والاستخلاف، ثم إنّ دلالة الإذهاب، أقوى إشارة إلى جعل الشّيء كماضٍ لا يُذكر، ولا يُؤبهُ لأهله بشيء، وأنّ هذا المعنى مُنسجمٌ تمامًا مع توالي الأفعال الّتي تدُلّ على التّجدّد المُستمرّ، وهذا المعنى بمُجمله تحقيقٌ لغناه سبحانه، فقال: (وَيَسْتَخْلِفْ)، وهو المعنى المجازيّ، ومن المُحتمل أن يُراد المعنى على الحقيقة، أي الإذهاب بمعنى الإهلاك، وهو ما عليه أغلبُ المفسّرين.

ولما كان اللهُ تعالى، لم يجعل لأحدٍ الخُلدَ، أُدْخل الجارُّ فقال: (مِن بَعْدِكُم)، أي بعد هلاككم، فحرفُ (مِنْ) زائدة للتّوكيد، وقوله: (مَّا يَشَاء)، أي يُوجِدُ غيركم من الخلق من جنسكم، أو غير جنسكم، كما أبدع أباكم آدم من التُّراب، والتّرابُ من العدم، وفرعكُم منهُ {كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ}، أي نسل {قَوْمٍ آخَرِينَ} [2].

وقوله: {كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}؛ تشبيهٌ تمثيليٌّ في إنشاء موجُودات بعد موجُودات أخرى، لا في كون المُنشئات مُخرجة من بقايا المعدُومات، فأفاد التشبيه هنا التّمثيل والقياس؛ فقاس قضية غير معروفة على ظاهرة معروفة، وهذا من صميم تقنيات الحجاج، ويجوزُ أن يكُون التَّشبيهُ في إنشاء موجُودات من بقايا معدُومات[3]، وهذا يعني أنّ هناك تخليقًا جديدًا للحياة، من كائنات

---

(1) ينظر: البحر المحيط: 4 / 651.

(2) ينظر: نظم الدّرر: 2 / 719.

(3) ينظر: التّحرير والتّنوير: 8 / 87.

غير حيّة، وهذه المسألةُ أصبحت اليوم من التحدّيات الكُبرى لعلماء الحياة؛ إذ كيف يأتي الحيُّ من اللّاحيّ؟!. ويمكن أن يكون التّشبيهُ التّمثيليُّ هُنا، بمعنى أنّ إنشاء الحضارات، هُو كإنشاء الحياة، وأنّ إبادة الحضارات، هي كإبادة الحياة، وهذا من فوائد الاحتباك أيضًا ومن جماليّاته.

وقوله: {مِنْ ذُرِّيَّةِ} للتّبعيض، أو(مِنْ) ابتدائيّة، أو هي بمعنى العِوَض، ونرجح أن تكون من ابتدائيّة؛ أي مبتدئين من ذرية قوم آخرين، ووصف قوم بـ (آخَرِينَ)، للدّلالة على المُغايرة، وذلك تنبيهٌ على عظيم قدرة الله تعالى، أن يُنْشِئَ أقوامًا من أقوامٍ يخالفُونهُم، في اللّغة والعوائد والمواطن، وهذا كناية عن تباعد العُصُور، وتسلسُل المُنشآت، لأنّ الاختلاف بين الأصول والفروع، لا يحدث إلّا في أزمنة بعيدة(1).

فمن نوادر القول، أن يأتي رُكنا الاحتباك، كركنين للتّشبيه، فهذا من عجائب أسلوب القرآن الكريم وجماله وإعجازه، والرّكنان المشتركان للتّشبيه والاحتباك، هما: المشبّه: {وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء}، والمشبّه به: {أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}؛ وهما صورتان؛ إذ أسّس ركنا التّشبيه؛ (المشبّه والمشبّه به)، لاحتباك نادر، ركناه المحذُوفان هُما: (ينشئ آخرين) و(استخلفكم)، ومع ركني الاحتباك يكتمل معنى التّشبيه التّمثيلي، إذ كيف يُشبّه الاستخلاف بالإنشاء من الذّرية.. مع أنّ الذّرية بواقع حالها، أضعفُ شأنًا من الأقوياء القادرين المؤهّلين للاستخلاف؟!.. فمن المعلوم أنّ المُشبّه به، يكُون هُو الأقوى في وجه الشّبه، فجاء الاحتباكُ ليكشف عن رُكنين محذوفين في المُقابلة، بين المُهْلكين والمُنْشئين، فبيّن أنّ وجه الشّبه مُتعدّدٌ من جانبين هما: الإنشاءُ والاستخلاف، فشبّه الإنشاءَ الثّاني، بالإنشاءِ الأوّل، وشبّه الاستخلاف الثّاني، بالاستخلاف الأوّل، وجعل قُدرة الله ومشيئتهُ سُبحانه، هي الحاكم والمُقدّر والمُدبّر، فمعنى الاحتباك، هُو: (إِنْ يَشَأ يُذْهِبْكُمْ، ويُنْشِئُ آخَرِينَ، وَيَسْتَخْلِفَهُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ، مَا يَشَاءُ، كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ وَاسْتَخْلَفَكُمْ)، ويكونُ معنى التّشبيه بحسب الاحتباك، هو: (يَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ كَمَا اسْتَخْلفكمْ) و(يُنْشِئُ آخَرِينَ كَمَا أَنْشَأَكُمْ)، فَوَجْهُ الشَّبَهِ المَشِيئَةُ والقُدْرَة، على الاستخلاف وَالإِنْشَاءِ.

وتمحْورَتْ المشيئةُ ومعاني القدرة والهيمنة، وتمَوْضَعَتْ بيْن رُكنيْ التّشبيه والاحتباك، فقوله: (مَا يَشَاءُ)، دلَّ على تكرار الإِنْشَاءِ والاستخلاف، وكأنّ عجلة التّاريخ تدورُ، فيتجدّدُ معها الزّمان والمكان، والإذهاب والاستخلاف، فضلًا عمّا في ذلك من الدّلالة على سعة الفترات الزّمنيّة بين نشءٍ وآخر، فاختصر الأزمنة كلّها، وكأنّها تندرج جميعُها، في مشْهدٍ واحدٍ، وزمنٍ واحدٍ، ومكانٍ واحدٍ. فيكون هذا الأسلوب قد حقّق الاستدلال والبرهنة والاقناع، ثمّ جعل في الطرح المُقدّم قضيّة علميّة مُتداولة لدى العلماء والباحثين والمتخصّصين، وهي قضيّة أصل النشأة وكيف بدأ خلق الانسان.

(1) ينظر: المصدر نفسه .

المبحث الرّابع

الحجاج في التّحدّي والتّعجيز

الشاهد فيها قوله تعالى: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} (134).

{إِنَّ مَا تُوعَدُونَ} أي: إنّ ما تُوعدُون من البعث وأحواله لَآتٍ؛ أي: لكائنٌ لا محالة، {وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} أي: بفائتين يعجز عنكم، وهذا ردٌّ لقولهم: (من مات فقد فات)؛ أي: هو سبحانه وتعالى قادرٌ على إعادتكم، وإن صرتم رفاتا[1]، ولفظ (تُوعَدُونَ) مأخُوذٌ من الوعيد، بقرينة {وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}، والإشارة إلى هذا الوعيد المُتقدّم خُصوصا[2]، أو إنّه مأخوذٌ من الوعد، فتكون خطابًا للمُؤمنين، ثمَّ يتحوّل الخطاب إلى غير المؤمنين، فيقول: {وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}، فيجمع الفريقين إيجازًا في خطاب واحد مركّز، ومُبِينٍ عن الدّلالة، في وُضُوح وإيجاز.

ولمّا تقرَّرَ أنّ الله الوصفين المُلازمين للقدرة، وهما{الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}؛ وألزَمَ السُّنّة الكونيّة في الخلق والتَّقدير، بهذه المُتلازمة؛ لينسجم الكون في إرادته سُبحانه، مُستظلًا تحت الغِنى المُطلق، والرّحمة المُطلقة لله تعالى؛ إذ أمهل غير المُؤمنين، حتّى يأتي يوم الحساب، فأنتج ذلك قوله جوابًا؛ لاستعجالهم بالعذاب على سبيل الاستهزاء، فقال: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ}؛ أي من البعث والحساب، أو قبل ذلك من إقرار العُقُوبة على القرى الّتي جاءتها النُذُرُ، ثُمّ لم تُؤمن؛ فاستحقّت العُقُوبة والعذاب.

وقوله: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ}، فصيغة الاستقبال (تُوعَدُونَ)، للدّلالة على الاستمرار والتّجديد، ولفظ (آتٍ) اسمُ فاعل، وفائدته الثّبات، أيْ لا بُدّ من وُقُوعه؛ لأنّ المُتوعِّد لا يُبدَّلُ القولُ لديه، ولا كُفُوءَ لَهُ يُعَارِضُهُ فيه[3]، وعُزّز السّياقُ بجُملةٍ من المُؤكّدات؛ هي حرفُ التّوكيد (إنّ)، واللّام المُزحلقة في (لآتٍ)، والباء الزّائدة في قوله: (بِمُعْجِزِينَ) لأنّ المخاطبين منكرون للبعث[4].

وبناء (تُوعَدُونَ) للمجهُول، يصحُّ أن يكُون الفعلُ مُضارعَ وَعَدَ يَعِدُ، أو مضارعَ أوْعَدَ يُوعِدُ، والمُتبادرُ هُو الأوّلُ[5]، ومن بديع الفصاحة اختيار بنائه للمجهُول، فهُو يُفيد الكُلّية، فينسجمُ مع مقصد القطعة القرآنيّة؛ إذ تناولت مفاهيم جمعيّة، كقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [الأنعام: 128]، أو قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُواْ}؛ فالبناءُ للمجهول هُنا، يصلُحُ لفظُه لحال المُؤمنين والمُشركين معًا، ولو بُنِيَ للمعلُوم، لتعيَّن فيه أحدُ الأمرين: بأن يُقال: إنّ ما نعدُكم، أو إنّ

---

(1) ينظر: محاسن التّأويل، القاسمي: 4 / 497.

(2) ينظر: المحرّر الوجيز، ابن عطيّة: 2 / 348.

(3) ينظر: نظم الدّرر: 2 / 719.

(4) ينظر: الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم ، محمّد حسين سلامة:98.

(5) ينظر: المصدر السّابق: 88.

ما نُوعدكم، وهذا من بديع التّوجيه المقصُود منه، أنْ يأخذ منهُ كلُّ فريق من السّامعين، ما يليقُ بحاله.

والإتيانُ مُستعارٌ للحُصُول تشبيهًا للشَّيْء الموْعُود به المُنتظر وقُوعُهُ، بالشّخص الغائب المُنتظر إتيانُهُ، كما تقدّم في قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً} [الأنعام: من الآية 47].

ومعلومٌ أنّ وعيد المُشركين، يستلزمُ وعْدًا للمُؤمنين، والمقصُودُ الأهمُّ، هُو وعيدُ المُشركين، فلذلك عقّب الكلام بقوله: {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ}، فذلك كالتّرشيح لأحد المُحتملين من الكلام المُوجّه[1]، وفيه احتمالٌ آخرٌ، وهُو أنّ الوعد مخْصُوصٌ بالثّواب؛ وأمّا الوعيدُ فمخصوصٌ بالعقاب، فقوله: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لأَتٍ}، يعني كلّ ما تعلّق بالوعد بالثّواب، فهو آت لا محالة؛ فتخصيصُ الوعد بهذا الجزم، يدلُّ على أنّ جانبَ الوعيد ليس كذلك[2]، ويقوّي هذا الوجه قوله في آخر الآية: {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ}؛ أي لن تُعجِزُونا في تحقيق وعيدنا، فتخْرُجُون من قدرتنا وحُكمنا.

استنتاج (الاحتباك) وتقديره في الآية:

وعليه فالحاصلُ أنّه لمّا ذكر الوعد، جزم بكونه آتيًا، ولمّا ذكر الوعيد ما زاد على قوله: {وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ}؛ وذلك يدلّ على أنّ جانب الرّحمة والإحسان غالبٌ[3]. فيكون المعنى: [إِنَّ مَا تُوعَدُونَ من الخير لآتٍ، وما تُتَوَعَّدونهُ من العذاب مُصيبكم وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ]، على طريقة الاحتباك، والجُملة على هذا المعنى مُقابلة.

{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ}؛ أيْ بثابتٍ لكمْ الإتيانُ بشيءٍ يعجزُ عنهُ الخصمُ، فتمهّد الأمرُ منْ جهته ومنْ جهتكُمْ، لوُجُود المُقْتضي، وانتفاءِ المانعِ، وفي ذلك تقريرٌ لأمر رحمته، لأنَّ القادر إذا أراد النّقمة، أخذَ على غُرّة ولم يُهدّد، وإذا أراد الرّحمة، تقدم بالوعيد، ليَحْذَرَ الفائزُونَ، ويستسلم الخاسرُون[4].ولذلك فبحسب هذا المعنى، يكونُ قولُهُ: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ}، مجيءُ السّاعة لأنّهُمْ كانُوا ينكرُون القيامة[5]، وهذه الجُملةُ بدلُ اشتمالٍ منْ جُملة: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} [الأنعام: 133]؛ والوعيدُ بالإهلاك أو الاذهاب، مُتعلّقٌ بالمشيئة، والمشيئةُ تشتملُ على حالين: حال ترك إهلاكهم، وحال إيقاعه، فأفادت أنّ مشيئة الله تعلّقت بإيقاع ما أوعدهُمْ به من الإذهاب[6]، أو يكونُ (مَا

(1) ينظر: التّحرير والتّنوير: 8 / 88.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب: 13 / 166.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 13 / 166.

(4) ينظر: نظم الدّرر: 2 / 719.

(5) ينظر: مفاتيح الغيب: 13 / 166.

(6) ينظر: التّحرير والتّنوير: 8 / 88.

تُوعَدُونَ)، هُو يوْمُ القيامة؛ إذْ أنّ (منْ مَاتَ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَّامَتُهُ) [(1)]، فيكُونُ الإهلاكُ أو الإذهابُ دليل القيامة، وخلاصةُ الأمرين واحدٌ، هو إذهابٌ لفرصة التّوبة والإنابة وانتهاؤها، وهُو الأمرُ الّذي دارت حوله متلازمتا الغنى والرّحمة، في قوله: {وَرَبُّكَ الغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}.

وحقيقةُ المُعجز، هُو الّذي يجعلُ طالبي شيْءٍ، عاجزين عن نواله، أيْ غير قادرين، واستعمل هُنا مجازًا في الإفلات من العذاب، فالمعنى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيَّ)، أي: بمُفلتين منْ وعيدي، أو بخارجين عنْ قُدرتي، ومجيءُ الجُملة اسميّة في قوله: (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ)، لإفادة الثبات والدّوام.

المبحث الخامس

المُحاجِجة في رفض الأخطاء والجرائم المجتمعيّة

الشاهد فيها قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} (137)

قوله: {وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}؛ أي ومثل تزيين قسمة القُرْبان بيْن الله وآلهتهم، وجعْلهم آلهتهُم شُركاء لله، في ذلك، أو مثل ذلك التّزيين الّذي عُلم من الشّياطين، فانطلق هنا في حجاجه بالتمثيل بما سبق، فما حدث منهم وما فعلوه، يُعدّ حقيقة مجتمعيّة حدثت منهم كثيراً، وهي جزء من وقائع المجتمع المنحرف عن سبيل الله. ويجُوزُ أن يكُون قوله (وكذلك) مُستأنفًا غير مُشار به إلى ما قبله، فيكونُ المعنى (وهكذا زيّن)، وقوله (لكثير)، يرادُ به من كان من مُشركي العرب، و(شُركاؤهم) هُمْ شياطينُهُم، أمرُوهُم أن يدفنُواْ بناتهم أحياءً خشية العيلة، وقيل: هُمْ سدنتُهُم وخزنتُهُم الّذين لآلهتهم، كانواْ يزيّنون لهم دفن البنات أحياء، وقيل: رُؤساؤهم كانواْ يقتلون الإناث تكبُّرًا، والذّكور توجُّسًا من الفقر، وقتل أولادهم بالوأد، أو بنحرهم للآلهة، وكان الرّجلُ يحْلفُ في الجاهليّة، لئن وُلد لي كذا غلامًا، لينحرنّ أحدَهم، كما حلفَ عبد المطّلب[(2)].

ليهلكُوهُم بالإغواء، وليخلطُواْ عليهم ما كانُواْ عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتديّنُواْ به، واللّامُ للتّعليل، إن كان التّزيينُ من الشّياطين، وللعاقبة إنْ كان من السّدنة؛ ولو شاء اللهُ ما فعل المُشركون ما زيّن لهم، أو الشّركاءُ التّزيين، أو الفريقان جميع ذلك، فذرهُمْ و افتراءهم، أو ما يختلقونهُ من الإفك[(3)].

---

(1) هذا النّصّ مرويٌّ عن أنس بن مالك ولم ينسب إلى النّبيّ (صلّى الله عليه وسلّم)، وقد ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:267/6، وذكره البغويّ في شرح السّنّة، غير منسوب إلى أحد: 97/15.

(2) ينظر: البحر المحيط: 4 / 257.

(3) ينظر: أنوار التنزيل: 2 / 183.

وقوله: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ}: تشبيهٌ يتضمّنُ النّوع الثّاني من أحكامهم الفاسدة، ومذاهبهم الباطلة، وقوله: (وَكَذَلِكَ)، عطفٌ على قوله: {وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأنعَامِ نَصِيبًا} [الأنعام: 136]؛ أي كما فعلُواْ ذلك، فكذلك زيّن لكثير منهم شركاؤُهم، قتل الأولاد، والمعنى: أنّ جعلهم لله نصيبا وللشّركاء نصيبا نهاية في الجهل، بمعرفة الخالق المُنعم، وإقدامُهُم على قتل أولادهم، نهاية في الجهالة والضّلالة، وذلك يُفيد التّنبيه على أنّ أحكام هؤلاء وأحوالهم، يشاكلُ بعضُها بعضًا في الرّكاكة والخساسة[1]، أو التّقدير: جعلُواْ وزيّن لهم شركاؤهم قتل أولادهم، فقتلوا أولادهم، فهذه حكاية نوع من أنواع تشريعاتهم الباطلة، وهي راجعة إلى تصرُّفهم في ذريّاتهم، بعد أن ذكر تصرّفاتهم في نتائج أموالهم، ولقد أعظم الله هذا التزيّين العجيب في الفساد الّذي حسَّن أقبح الأشياء، وهو قتلهم أحبّ النّاس إليهم، وهم أبناؤهم، فشبّه بنفس التّزيين للدّلالة على أنّه لو شاء أحد أن يمثّله بشيء في الفظاعة والشّناعة، لمْ يسعْهُ إلّا أنْ يشبّههُ بنفسه، لأنّهُ لا يبلغُ شيءٌ مبلغ أن يكُون أظهرَ منْهُ في بابه، فيلجأ إلى تشبيهه بنفسه، والتّقدير: وزيّنَ شركاءُ المُشركين لكثيرٍ فيهم، تزْيينًا مثل ذلك التّزيين الّذي زيّنُوهُ لهُمْ[2].

ومعنى تزيين ذلك هنا، أنّ الشّركاء خيّلواْ لهؤلاء النّاس، أساليب بشعة في التّقرب إلى آلهتهم، بقتل أولادهم؛ إذ أوهمُوهُم أنّ في ذلك قُربةً إليهم، أو أنّ إبقاءهم سيجلبُ العار، وأنّ قتلهم سيحقّقُ منافع، فأتوهُمْ من حيث يسهل إقناعهم. وأسند التّزيينَ إلى الشُّركاء: إمّا لإرادة الشّياطين الشّركاء، فالتّزيينُ تزيينُ الشّياطين بالوسوسة، فيكُونُ الإسنادُ على الحقيقة، وإمّا لأنّ التّزيين نشأ لهم عن إشاعة كبرائهم فيهم، أو بشرع وضعه لهم، من وضع عبادة الأصنام، وفرض لها حقوقًا في أموالهم، فيكون إسنادُ التّزيين إلى الشّركاء مجازًا عقليًا، لأنّ الأصنام سبب ذلك بواسطة أو بواسطتين[3]، وإسنادُ القتل إلى الشّركاء، على طريقة المجاز العقليّ أيضاً، إمّا لأنّ الشّركاء سبب القتل، إذا كان القتلُ قُربانًا للأصنام، وإمّا لأنّ الّذين شرعُواْ لهُم القتل، هُمْ القائمُون بديانة الشّرك[4]. والمعنى: أنّ شركاءهم من الشّياطين أو من سدنة الأصنام، زيّنواْ لهم قتل أولادهم بالوأد أو بالنّحر.

وقوله: {لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}؛ قدّم السبب والنتيجة، وهي من أهم الرّوابط الحجاجيّة التي تخدم الاستدلال والبرهنة والاقناع. والإرْدَاءُ في اللّغة الإهلاكُ، وفي القرآن: {إِنْ كِدتَ لَتُرْدِيْنِ} [الصّافات: 56]، واللّام هاهُنا محمُولةٌ على لام العاقبة، كما في قوله: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص: من الآية 8]، {وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}؛ أي ليخلطُواْ، لأنّهم كانُواْ على

(1) ينظر: مفاتيح الغيب: 13 / 158.

(2) ينظر: التّحرير والتّنوير: 8 / 98.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 8 / 99.

(4) ينظر: نفسه: 8 / 102.

دين إسماعيل، فهذا الّذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة، أراد أن يُزيلهم عن ذلك الدّين الحقّ[1]، وقدّم الجارّ والمجرور (عليهم)، للاهتمام بهم، ولبيان أنّهم هم المقصودون، في هذا العمل الشّنيع.

واللّامُ للعاقبة، إنْ كانَ المُرادُ بالشّركاء الأصنامُ؛ أي زيّنُوا لهُم ذلك قصْدًا لنفْعهم، فانكشف عن أضرارٍ جهلُوهَا، وإنْ كان المُرادُ بالشّركاء الجنّ، أي الشّياطين، فاللّام للتّعليل؛ لأنّ الإيقاع في الشّرّ من طبيعة الوسواس، لأنّه يستحسن الشّرّ، وينساق إليه من غير قصد، إلى كون ما يدعُونهُمْ إليه مرديًا وملبسًا، فإنّ أولياءَهُمْ لا يقصدون إضرارهم، ولكنّهم لمّا دعوهم إلى أشياء هي في نفس الأمر مضارّ، كان تزيينهم معلَّلًا بالإرداء والإلباس، وإن لم يفقهُوهُ، بخلاف من دعا لسبب فتبيّن خلافه، والضّمير للشّركاء، والتّعليل للتّزيين[2].

استعارة في قوله تعالى: {وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}، استعار اللّبس لشدّة المُخالطة الحاصلة بينهم وبين التّخليط، حتّى كأنّها لبسوها كالثّياب، وصارت محيطة بهم "[3].

ومن معاني التّردّي أيضًا لُبْسُ الرّداء؛ ثُمّ أُتْبعتْ بقوله: (وَلِيَلْبِسُواْ)؛ إذ التّناسبُ في معنى اللّبس، بين الكلمتين بيّنٌ؛ فيكونُ معنى (وَلِيَلْبِسُواْ) توريّةً؛ لأنّ اللّفظ يحتمل معنيّين، الأوّل قريب، وهو المُتبادَر إلى الذّهن، وهو الإرداء؛ من ارتداء الثّوب، لتناسُبه مع الإلباس، في قوله: (وَلِيَلْبِسُواْ)، الّذي يدُلُّ كذلك على لُبس الثّوب، ولكنّه لمّا قال: (عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ)، خرج المعنى الحقيقيُّ لقوله: (وَلِيَلْبِسُواْ)، إلى معنى مجازيٍّ على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، فكما أنّ اللّباسَ يُغطّي الجسد، فكذلك هُنا شابهت تزيينَ الشّياطين لأوليائهم، تغطيةُ الحقيقة، فصارت كتغطية الأجساد باللّباس، وبحسب ذلك، فقد انعكس معنى (يُرْدُوهُمْ)، إلى معنى آخر، غير ارتداء الملابس، فمن معاني الإرداء: الإيقاع في الرّدى، والرّدَى: الموتُ، ويُستعملُ في الضُرِّ الشّديدِ مجازًا أو استعارةً، وذلك المُرادُ هُنا، ولبَّسَ عليه أوقعه في اللّبس، وهو الخلطَ والاشتباهَ، أي أن يخلطواْ عليهم دينهم، فيوهمُوهُم الضّلال رشدًا، وأنّه مُرادُ الله منهُم، فهُم يتقرّبُون إلى الله، وإلى الأصنام لتقرّبهم إلى الله، ويخلطُون لهُمْ بيْنَ ما يرضَاهُ الله، وما لا يرضاهُ، ويخيّلون إليهم، أنّ وأْدَ البنات مصلحةٌ، فمعنى: {وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}؛ أنّهم يُحدثون لهُمْ دينًا مُختلطًا من أصناف الباطل، وقيل: المُرادُ ليدخُلُواْ عليهم اللُّبس في الدّين الّذي كانُواْ عليه، وهُو دينُ الحنيفيّة، فيجعلُواْ فيه أشياء من الباطل، تختلطُ مع الحقّ[4].

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب: 13 / 159.

(2) ينظر: التّحرير والتّنوير: 8 / 104.

(3) حدائق الرّوح والرّيحان، الهرري: 9 / 118.

(4) ينظر: التّحرير والتّنوير: 8 / 104.

استنتاج (الاحتباك) وتقديره في الآية:

وفي عموم معنى الآية احتباكٌ والمعنى بحسبه: [وكذلك زَيّن لكثير منَ المُشركين شُركاؤُهم (فشرّعُواْ لَهُمْ أَوْ فأَوْحَواْ إِلَيْهِمْ) قتل أولادهم (فَقَتَلُوهُمْ) ليُرْدُوهُمْ وليلبسُواْ عليهم دينَهُم].

وقوله: {وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ}، يدلُّ على أنّ كُلّ ما فعله المُشركُون، فهُو بمشيئة الله تعالى، فذيّل بهذه العبارة ليجعل من العبارة السّابقة قضيّة تداوليّة مهمّة، تقتضي تحريك الفكر والنفس والعقل. والآيةُ لبيان قُدرته سُبحانه، على منع تلك الأعمال، كما كانَ في الآية السّابقة، منْ بيان قُدْرته على الخلْق منَ العدَمِ، أوْ أنّه أنشأ المُخاطبين منْ ذُرّية قوم آخرين.. إذ تصبُّ جميعُها في متلازمةِ {الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}[(1)]، و(فَعَلُوهُ) يعُودُ إلى المُشركين، أيْ: (لَوْ شَاءَ اللهُ لَعَصَمَهُمْ مِنْ تزْيين شُرَكَائِهِمْ)، أو يعودُ إلى الشّركاء، أي: (لَوْ شَاءَ اللهُ لَصَدَّهُمْ عَنْ إِغْوَاءِ أَتْبَاعِهِمْ)، وضَمِيرُ النّصْب يعُودُ إلى القتل، أو إلى التّزيين، على التّوزيع على الوجهين، في ضمير الرّفع[(2)].

وقوله: {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}، وهذا على طريقة قوله: {اعْمَلُواْ مَا شِئتُمْ} [فصلت: 40]. وقوله: (وَمَا يَفْتَرُونَ)؛ يدُلُّ على أنّهُمْ كانُواْ يقُولُون: (إِنَّ اللهَ أَمَرَهُمْ بقَتْلِ أَوْلَادِهِمْ)، فكانُواْ يفترُون على الله كذبًا وزُورًا[(3)]؛ فما يفترُونَهُ على الله، فيدّعُون أنّه أمرهم بما اقترفُوهُ، ومعلُومٌ أنّ افتراءهُمْ هذا، ناتجٌ عن كبيرةٍ أُخْرى، هيَ اتّباعٌ لافتراء شُركائهم، فسمّاهُ افتراءً؛ لأنّهم تقلّدُوهُ عن غير نظَرٍ ولا اسْتدلالٍ، فجعلهُم مُشاركين لشياطينهمْ من الجنّ والأنس في ما يفترُون، وقدْ كانُواْ يُموّهُون على النّاس، أنّ هذا ممّا أمر الله به، كما دلّ عليه في الآية التّالية قوله: (افْتِرَاءً عَلَيْهِ) [الأنعام: 138].

الخاتمة: الاستنتاجات والتوصيات:

وفي خاتمة البحث فإنّه لابدّ من الخروج بجملة من الاستنتاجات والوقوف على توصيات، يمكن إدراجها بما يأتي:

الاستنتاجات: من أهمها:

1. الوقوف على جملة من آيات الحجاج في سورة الأنعام ذلك بأنّها سورة نزلت جملة واحدة فقد تشكّلت فيها الوحدة الموضوعيّة في مناظرة المشركين ومحاججتهم.
2. معظم الموضوعات الحجاجية في سورة الانعام؛ التي ظهر فيها محسّن الاحتباك؛ تناولت قضايا وموضوعات تربوية. وهي من الحقائق المجتمعية التي تضمن مسارات الحجاج.

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب: 13 / 159.

(2) ينظر: التّحرير والتّنوير: 8 / 105.

(3) ينظر: المصدر نفسه.

3. أحياناً يقدّم النّص القرآني في سياق فن الاحتباك افتراضات تُعرف بالقياس، باعتبارها مسلّمات حجاجيّة.
4. تقديم المسائل العديدة في النص الواحد يجمعها التّوافق وعدم التّناقض في الطّرح، ليحقّق واحدة من تقنيّات الحجاج المهمّة.
5. عادة ما يُذيّل السبب بنتيجته، وهذا من الرّوابط الحجاجيّة المهمّة بين بين الأفكار والحُجج فيحقّق التماسك والانسجام في النّص الحجاجيّ.
6. أظهر البحث أن بعض آيات الاحتباك قدّمت الحقائق الدينيّة والعلميّة لضمان سير العمليّة الحجاجيّة؛ فبلور من القضيّة الدّينيّة قضيّة علمية، من ذلك قضيّة أصل النشأة وكيف بدأ خلق الانسان، مما يدعم التوافق بين العلم الصحيح والدين القيّم.
7. بيان أنّ عدداً من الأساليب والفنون البلاغية هي أساليب حجاجيّة لغويّة مثل التوكيد، والشرط، والتكرار، والتشبيه، والتمثيل، والصورة الفنّيّة، واللف والنّشر وغيرها.
8. بيان أنّ لآيات الحجاج نصيباً بيّناً من فن الاحتباك، ذلك لأنّ من خصائص أسلوب الاحتباك الحذف والإيجاز وهذا ما يستدعيه أسلوب المحاججة، لتحقيق الإقناع وإقامة الحجّة بأقل الكلمات.
9. تبيّن من البحث أنّ أركان الاحتباك أربعة ينشأ منهما طباقان أو التفاتان، فيُحذف أحد الطباقين أو الالتفاتين لينتج عنه محسّن الاحتباك.
10. دور الفنون والأساليب البلاغية في بلورة المعنى للآية الكريمة موضوع البحث، ومساعدتها في استنتاج محسن الاحتباك.

التوصيات: من أهمها:

- تعميم فكرة البحث على سورٍ أُخَرْ من القرآن الكريم لإحصاء مساحة ورود مُحسّن الاحتباك فيه.
- تعميم فكرة البحث على فنون بلاغية أخرى كان لها أهميّة في آيات الحجاج.

المصادر والمراجع:

- **ابن الجوزيّ**، زاد المسير في علم التّفسير، المكتب الإسلامي، ط3، بيروت، 1404.
- **ابن عاشور**، التحرير والتنوير، دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.
- **ابن عطيّة**، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ.
- **أبو الزهراء**، دروس الحجاج الفلسفي، مجلة الشبكة التربوية الشاملة، 2008.
- **أبو حبان الاندلسي**، البحر المحيط في التّفسير، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، 1420 هـ
- **البقاعي**، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، دار الكتب العلمية – بيروت، 1415هـ– 1995م.

- **البيضاويّ**، أنوار التّنزيل وأسرار التأويل، لمحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418 هـ.
- **الحوّاس مسعودي**، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجا، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص، ع12، 1997.
- **د.عدنان عبد السّلام الأسعد**، بلاغة الحذف التركيبي في القرآن الكريم- الاحتباك أنموذجاً، دار غيداء، الأردن، 2013م-1434هـ.
- **الرّازيّ**، مفاتيح الغيب، دار النشر: دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1421هـ- 2000 م.
- **الزّبيديّ**، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحقّقين، دار الهداية.
- **الزّركشي**، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط1، 1376 هـ - 1957 م.
- **الزّمخشريّ**، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1419 هـ - 1998 م.
- **الزّمخشريّ**، الكشّاف، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، 1407 هـ.
- **السّيوطي**، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، 1988م.
- **الشّعراويّ**: المنتخب من تفسير القرآن، مطابع أخبار اليوم.
- **الشّوكاني**، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط1، دمشق، بيروت، 1414هـ.
- **الطّبريّ**، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م.
- **الطّيبيّ**، فتوح الغيب، تح: إياد محمد الغوج، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1، 2013م.
- **الفراهيديّ**، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **القاسمي**، محاسن التّأويل، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1418هـ.
- **القرطبي**، الجامع لأحكام القرآن، تح: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423 هـ/ 2003 م.
- **القونويّ**، حاشية القونيّ على البيضاويّ، دار الكتب العلمية، 2001م.
- **محمّد** حسين سلامة، الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم، دار الآفاق العربيّة، ط1، القاهرة، 2002م.
- **محمود** صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت ط4، 1418هـ.
- **الهرري**، حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن، دار طوق النجاة، ط1، بيروت، لبنان، 1421هـ-2001م.
- **Dominique Maingueneau:** Pragmatique pour le Discours Littéraire, Bordas, Paris, 1990, p35.